نظرات في أسس التعامل مع الآخر في ضوء القرآن الكريم والسنة والنبوية وسيرة السلف الصالح

الشيخ : محمد أحمد حسين

أمير الجماعة الإسلامية

باكستان

تمهيـــد

تتباين مواقف الناس في أهم القضايا وأبسطها، والمتخالفون من ناحيتنا قد يكونون مسلمين يحملون أفكاراً أو اجتهادات مختلفة، وقد يكونون غير مسلمين يعيشون مع المسلمين في مجتمع واحد أو في مجتمعات أخرى.

ولا يجد المتباينون في كثير من الأحيان مناصاً من الاحتكاك بعضهم ببعض، ولا مفر لهم من بناء علاقات في مجالات الحياة المختلفة مع بعضهم بعضا، تحت إطار فهم الآخر، سواء داخل المجتمع الواحد، أو خارجه.

ويشار هنا إلى سلامة السبيل الذي يهتم فيه الناس بالبحث عن نقاط الالتقاء والاتفاق أكثر من اهتمامهم بالعزف على أوتار الاختلاف والتغاير والشقاق.

لكن فهم الآخر ليس أمراً انتقائيا، يطلب في مواقف ويتجاهل في أخرى، ينتقد به قوم ويعفى من ضوابطه آخرون، فمثلما يطلب الفهم من طرف للآخر، فإنه يطلب كذلك من الآخرين تجاه هذا الطرف،وإن لم تتم هذه التبادلية والمماثلة في التعامل،فإن تهمة الكيل بمكيالين تكون لاصقة بالانتقائيين ولازمة لهم.

فمثلما يطلب من المسلم أن يفهم غير المسلم في إطار ضوابط الشرع، فإن فهم الآخر مطلوب بين المسلمين أنفسهم، على اختلاف اجتهاداتهم وتنظيماتهم وتصوراتهم ومذاهبهم.

وكذلك فإن غير المسلم مطالب بفهم المسلم، يتقبله بإسلامه الذي يدين به، دون أن يشترط عليه الأخذ بإسلام مبتدع، على موَّال فلان ،أو طريقة علاَّن.

نعم إن فهم الآخر شعار جميل، وسيكون أجمل لو اتسم بالشمول، لأنه

سيلطف الأجواء بين الناس، ويفتح الآفاق للحوار الموضوعي الهادئ بينهم، في جو من الاحترام وحفظ الحقوق، مما يساعد في تخفيف الأحقاد، وإطفاء فتيل النزاع على أكثر من مستوى وصعيد.

وفي ظل التساؤل عن موقف الإسلام من العلاقة بالآخر وفهمه، يحاول بحثنا هذا الإجابة عن بعض الأسئلة التي تتفرع عن هذا التساؤل، وهي على النحو الآتي:

١- ما القواسم المشتركة التي يلتقي فيها المسلم مع الآخر في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية؟

٢- ما حقيقة وجود الاختلاف بين الناس وكيفية التعامل مع الآخر في ضوئه وفق الكتاب والسنة؟

٣- كيف يمكن التوفيق بين النصوص الشرعية التي تذم المناهج المغايرة للإسلام وبين النصوص الأخرى التي تفتح آفاقاً للاعتراف بوجود الآخر وتتيح المجال للتعامل معه؟

٤- ما الحد المقبول للاختلاف بين المسلمين في الرأي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية؟

٥- ما الصورة المثلى لعلاقات المسلمين مع بعضهم بعضا في ظل تعدد آرائهم ووجهات نظرهم؟

وسوف يجري التركيز في هذا البحث على ما تيسر من الشواهد القرآنية خلال الإجابة عن تلك الأسئلة، بهدف التأكيد على أن الحديث عن إمكانية التعايش مع الآخر ومحاورته في إطار الضوابط الشرعية، إنما يستند إلى ما أوحى الله لرسوله الكريم ﷺ من القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

القواسم المشتركة التي يلتقي فيها المسلم مع الآخر في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

رغم ما بين الناس من اختلاف وتباين، فإنهم لو بحثوا عن أمور مشتركة بينهم لوجدوا الكثير، وتشير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة إلى عدد من الأمور التي تشكل قاسماً مشتركاً بين الناس، سواء المسلمين منهم أوغيرهم، ومن تلك الأمور:

-خالق الناس واحد، وهو الله سبحانه وتعالى :

أشار القرآن الكريم في عدد من آياته إلى حقيقة خلق الله سبحانه للناس كافة، كما في مطلع سورة الرحمن، إذ قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾(الرحمن: ١-٣).

ولما طلب الله من الناس أن يعبدوه ذكرهم بأنه سبحانه خالقهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٢١) .

ولا يجد الناس مهما كانت توجهاتهم مناصاً من الاعتراف بهذه الحقيقة، يقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف:٨٧)

فهذا القاسم عظيم، ويشكل الركيزة المهمة في جانب التوافق الإنساني،وهو مؤشر مهم لإمكانية التعايش بين الناس.

- يرجع الناس لأب واحد وأم واحدة- إخوة في الإنسانية

معروف أن الله خلق آدم أولاً وأعلن للملائكة أنه سيكلفه بمهمة الخلافة

في الأرض فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠).

ثم خلق منه زوجه، ثم تناسل الخلق وتكاثروا، مصداقاً لقوله تعالى في مطلع سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (النساء:١)[1].

فأبو البشر واحد، وهو آدم عليه السلام، وأمهم واحدة، وهم بذلك إخوة في الإنسانية.

- أصل خلق الناس واحد

أخبر القرآن الكريم أن الله بدأ خلق الإنسان من تراب، وجعل الله خلق الإنسان من هذه المادة آية على عظمة الله وقدرته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ (الروم:٢٠).

وبين سبحانه في آيات أخرى أنه خلق الإنسان من طين، وهو مزيج من تراب وماء[2]، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (الأنعام:٢).

وذكرت آيات أخرى نوع الطين الذي خلق منه الإنسان فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾ (الصافات:١١).

وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن:١٤).

---

(١) وفي سورة الزمر يقول تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾ (الزمر:٦)

(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون:١٢)، وقال سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة:٧)، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ﴾ (ص:٧١).

وتذرع الشيطان بهذا السبب لامتناعه عن السجود لآدم عندما أمره الله به[١]، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ (الإسراء:٦١).

وبينت آيات أخرى أن الإنسان خلق من ماء مهين[٢]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾ (المرسلات:٢٠)

وفصلت آيات أخرى مراحل خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج:٥)[٣].

---

(١) وقال سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف:١٢)،

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص:٧٦).

(٢) وقال تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٧-٩)

(٣) وقال سبحانه: ﴿وَاللّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطر:١١)

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (غافر:٦٧).

فالناس خلقوا من مادة واحدة، ويرجعون إلى أصل واحد، ويمرون في مراحل خلقية واحدة، ويبدأ خلقهم بحالة من الضعف واضحة للعيان، ثم يشتد عود الإنسان ويقوى عضده، ثم يعود لا محالة إلى ضعف في نهاية المطاف، مهما طال به الزمان أو قصر على اختلاف بين الناس وتفاوت في المدى والمستوى، يقول تعالى: ﴿اللهُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ من بَعْد ضَعْف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ من بَعْد قُوَّة ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم:٥٤).

فأصل الخلق واحد، ويرجع إلى هذا الأصل جميع بني آدم، على اختلاف مذاهبهم وألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وقوتهم وضعفهم وعلمهم وجهلهم، ويشكل هذا الأصل أساساً لالتقاء بني البشر، وداعياً لأن يرحم بعضهم بعضاً، كما يشكل مانعاً من تطاول بعضهم على بعض.

- الولادة على الفطرة السوية

يولد الناس في الأصل على الفطرة السوية، يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله﴾ (الروم:٣٠).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي).

وفي رواية، قال رسول الله ﷺ : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا

أنتم تجدعونها قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير قال الله أعلم بما كانوا عاملين " (صحيح البخاري، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين).

فالخير أصل في الناس، بينما الشر طارئ أو دخيل عليه، مما يعني ضرورة البحث عن جوانب الخير في الناس، والعناية بها وتعزيزها، ومعالجة جوانب الشر، وتعديلها فيهم، وقد كان الرسول ﷺ قدوة في ذلك، إذ لم يغفل ما في شخصيات خصومه من إيجابية، فهو القائل عليه الصلاة والسلام: " الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم، والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية لهذا الشأن حتى يقع فيه " (صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾.

فلم يجعل الرسول ﷺ من المخالفة سبباً لتجاهل الحقيقة، ولا مبرراً لبخس الناس، وفي ذلك درس مهم لنا ونحن نعايش عالماً لا نجد بداً من التعامل معه، والاستفادة من خبراته في كثير من مجالات حياتنا العملية وغيرها، رغم ما بيننا وبينه من اختلاف عقائدي وفكري وقيمي في كثير من الأحيان.

- تكريم الإنسان وإحسان خلقه وصورته

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ...﴾ (الإسراء: ٧٠) فالله لم يقل كرمنا صنفاً من الناس دون صنف، وإنما أصل التكريم يشمل الناس جميعاً لمجرد أنهم من أبناء آدم، وللتكريم مقتضيات ينبغي مراعاتها، في كل أحوال التعامل مع الانسان وظروفها، فهي قيمة معتبرة حتى في حالات الحروب والعقاب، من هنا جاءت السنة النبوية باحترام كرامة الإنسان حياً وميتاً، ومما

يدل على ذلك، ما روي عن جابر، أنه قال: " قام النبي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت " (صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة).

والله فاضل بين الناس في مستوى التكريم، بناء على درجة التقوى لديهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣).

والله خلق الإنسان في أحسن صورة، يقول تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن:٣)

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤).

ويأتي حسن الخلق للناس في إطار القاعدة الكلية، التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة:٧).

- الناس على اختلاف ألوانهم وأطيافهم تستهدفهم رسالة الإسلام بالهداية والرحمة والإسعاد

إن الإنسان أياً كان موقعه أو مذهبه أو لغته أو جنسه فإنه محط رعاية الإسلام ومقصود للهداية ونيل الخير الذي جاء به هذا الدين، فالله أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (ص:٨٧)[١].

وأنزل الله القرآن نذيراً للعالمين، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان:١).

---

(١) ومثله في سورة القلم، يقول تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (القلم:٥٢) وفي سورة التكوير ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير:٢٧)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: "قدم الطفيل بن عمرو على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن دوسا قد عصت وأبت، فادع الله عليها.- فظن الناس أنه يدعو عليهم- فقال: "اللهم اهد دوسا وأت بهم" (صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء للمشركين).

ومن منطلق رحمته ﷺ بالعالمين، أنه حرص على التحذير من تجاوز الرحمة في العلاقة مع الناس، فقال ﷺ: "لاَ يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ" (صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن).

ومعلوم أن لفظ الناس عام، يشمل جنس الناس مسلمهم وغيره.

وبين ﷺ أن الإحسان مطلوب في كل الأمور، وكل العلاقات، فقال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء" (صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة).

وهذا التوجيه النبوي ينسجم تماماً مع قوله تعالى: ﴿..وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥) وقوله سبحانه: ﴿...وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤).

ودعا الله إلى العفو والإحسان حتى مع من قال فيهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣).

وحث القرآن الكريم على الإحسان لأسير الأعداء الذي يقع في أيدي المسلمين، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ (الإنسان:٨).

- **عداوة الشيطان لعموم الناس**

ومن القواسم المشتركة بين الناس عموماً، أنهم يواجهون عدواً لدوداً، يستهدفهم بشره وكيده، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:٦).

فالشيطان ناصب بني آدم العداء من لدن أبيهم آدم، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٧).

وقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه:١١٧).

وعداوة الشيطان معلنة من قبله لبني آدم، وأخبر الله تعالى عن هذا في قوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء:٦٢) .

وقد طلب إبليس أن يتيح الله له القيام بهذا العداء، قال تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٤-١٨).

وقد حذر الله بني آدم من أن تنطلي عليهم حيل الشيطان، وينساقوا وراء أحابيله، وعهد الله إليهم بتجنب عبادته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي

آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يس:٦٠).

فمن الحكمة والمنطق أن يوحد الناس جهودهم للتصدي لعدوهم المشترك الذي يتربص بهم الدوائر، ويسعى لنشر الشر بينهم، ويعمل على تفريق جمعهم.

- نهاية مطاف الناس في الدنيا تكون بالموت ومصيرهم إلى الله

فكما التقى الناس عند بداية الخلق، في وحدة المنشأ، ومراحل الخلق، فإنهم يلتقون أيضاً في النهاية الحتمية لحياة كل إنسان، فمآل الخلق من هذه الناحية واحد، فهم على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ينتهون عن الحياة بالموت، ومآب الجميع إلى الله[1] يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران:١٨٥)،وساعة الموت مجهولة للخلق جميعاً، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:٣٤).

فالدنيا بالنسبة لجميع الناس محطة البداية ونقطة الانطلاق للآخرة، يقول تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (الأعراف:٢٥).

---

(١) ووردت آيات أخرى تؤكد على هذا المعنى، منها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥).
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت:٥٧).
﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ..﴾ (النساء:٧٨)
﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (الواقعة:٦٠)
﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ...﴾ (آل عمران:١٤٥)
﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١)

والحياة والموت لابتلاء الخلق، يقول تعالى: ﴿الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:٢).

والخلق كلهم سيبعثون لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين:٣-٦).

وسيواجهون الحقيقة لا محالة عند موقفهم للحساب في الآخرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج:١٧).

وهذا قاسم آخر يلتقي عليه بنو آدم؛ فكلهم ميتون ومبعوثون ومحاسبون.

حقيقة وجود الاختلاف بين الناس وكيفية التعامل مع الآخر في ضوئه وفق الكتاب والسنة

الاختلاف بين الناس حقيقة واقعة، سواء فيما لم يكن لهم اختيار فيه، أم فيما اختاروه بإرادتهم، فالله خلق الناس بألوان وأجناس ولغات وعقول مختلفة، وجعل ذلك آية دالة على عظمته وقدرته سبحانه ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم:٢٢).

فالتنوع البشري من هذا الجانب واضح للعيان، ففيهم الأسود والأبيض، وفيهم العربي والعجمي، وفيهم العالم والأحمق...الخ. والشريعة الإسلامية تمنع أن يدفع هذا الاختلاف للتباعد بين الأنواع المختلفة من الناس.

والناس مختلفون كذلك فيما اختاروا بأنفسهم من العقائد والأفكار والمناهج والسلوك، لكن تعايشهم مع اختلافهم أمر ممكن، فالله أرسل لهم الرسل عليهم السلام، وأنزل إليهم الكتب، وختم الرسالات برسالة الإسلام، فتلك حقائق يجدر مراعاتها عند التعامل مع أتباع الديانات الأخرى، أو القضايا التي تنادي بها تلك الأديان، فالله تعالى يضع القاعدة لهذا التعامل، فيقول سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة: ٤٨)[1].

فالله لم يرد أن يقضي على التنوع بين البشر والتعدد في المذاهب

(١) وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (النحل:٩٣)، ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الشورى:٨)

والتوجهات، فقد جعل الاختلاف بين الخلق وارداً لا محالة، ونتج عن ذلك أصناف من الناس ومذاهب شتى، والله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن:٢).

ولو شاء الله لانتصر لبعض البشر على بعض، ولو أراد الله ما أبقى أحداً من مخالفيه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ (الإنسان:٢٨).

ومن مقتضيات التعامل مع حقيقة الاختلاف الواقع بين أصحاب الأديان، أن لا يجبر أحد على تغيير مذهبه ومعتقده، فنزع الاعتقاد قسراً من الناس خطأ فادح، لأنه لا يوصل إلى الهدف الحقيقي والمتمثل في الهداية الحقيقية، عدا ما يؤديه النزع القهري من ظلم للناس، وذلك يتنافى مع قيم الإسلام ومبادئه، ومعلوم أن الله عز وجل نهى عن الإكراه في الدين، فقال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦).

ويخاطب الله أشد الناس مخالفة للمسلمين وهم الكافرون، فيفسح لهم المجال ليبقوا على مذاهبهم، فيقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ١-٦).

وجاءت آيات أخرى تؤكد أن اختلاف البشر في معتقداتهم وشرائعهم يقع في إطار مشيئة الله تعالى، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود:١١٨).

ويقول تعالى: ﴿... بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (الرعد:٣١).

وبما أن التعددية العقائدية أمر واقع لا محالة، فعلى المسلم أن يتعامل مع هذه القضية من هذا المنطلق، فالله تعالى يقول: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فليكفر..﴾ (الكهف:٢٩) .

فالإيمان والكفر يكونان من البشر بإرادة الله، ويبقى حساب كل إنسان وجزاؤه على ما اعتقد وعمل عند الله، ولو شاء الله لما حصل هذا الاختلاف، ولما كان الناس إلا أمة واحدة، ولكن الله ترك للناس حرية الاختيار، وهم محاسبون يوم القيامة على ما ينتهجون، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ٩٩-١٠٠)

فالأمر أولاً وأخيراً بيد الله، والحساب على الأعمال والاختيارات، والجزاء على ذلك كله لله رب العالمين، يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج: ٦٧-٦٩)[1].

(١) وردت آيات أخرى تشير إلى مرجعية الحاكمية فيما يختلف فيه الناس ،إنها لله ومن تلك الآيات ﴿فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (النساء:١٤١)
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النحل:١٢٤)
﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (الحج:٥٦)
﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الزمر:٣).

الصبر على ما يجد المرء من معاناة خلال تعامله مع المخالفين

يثبت الله تعالى المؤمنين وهم يواجهون مخالفيهم خلال خطابه للنبي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦)

ومما يشد الانتباه أن هذا الخطاب جاء أيضاً في مقدمة إحدى السور القرآنية، ففي الآية الثالثة من سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣)،

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٨)

فلا داعي إذن للإحباط جراء ما يذهب إليه المخالفون للمسلمين، بل المطلوب الصبر في مواجهة ذلك، عسى الله أن يقضي أمراً كان مفعولا، يقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨)

وأمر الله بالصبر على المخالفين، ارتقاباً لحكم الله، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس:١٠٩).

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (الأعراف:٨٧).

وبين الله للمؤمنين سبيلهم في الدعوة في ظل الاختلاف الواقع مع مخالفيهم ،

فقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ من كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٥).

فهداية الخلق ليست ملكاً في يد الدعاة ولا الأنبياء، وإنما أمرها لله، يقول تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٧٢)(١).

ورسوخ هذه الحقيقة في نفوس الناس وقلوبهم يساهم في تلطيف الأجواء بينهم، ويساعد في تخفيف حدة الاحتقان بين المختلفين الناتج من تعدد آرائهم ومذاهبهم.

ورغم الاختلاف بين الناس فإن التعارف بينهم مطلوب، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣).

من هنا يكون المطلوب من المسلم الدعوة للخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما النتائج فتترك لله، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ

(١) ومن الآيات القرآنية التي تبين أن أمر الاختلاف بين الناس في العقائد مرده إلى الله، مايلي :
﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام:١٠٧)
﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام:١١١)
﴿قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام:١٤٩)، ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦).

وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران:٢٠)[١].

ويقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ (الغاشية: ٢١-٢٦).

وينسجم مع هذا المبدأ الموقف الشرعي من دور العبادة الخاصة بغير المسلمين، فالإسلام يأمر بحمايتها والحفاظ عليها، ويجعل ذلك هدفاً نبيلاً للقتال المشروع، فالله يبين أن لحماية الكنائس والمعابد هدفاً، وأمراً منشوداً، بغض النظر عن الموقف من أصحابها، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ (الحج:٤٠).

فأماكن العبادة أياً كان أصحابها، هي محمية وفق الشريعة الإسلامية، فلا يجوز التعرض لها بالهدم أو التخريب، ولا يجوز التعرض لمرتاديها بأي شكل من أشكال الأذى أو المضايقة، وقد اعتبر القرآن الكريم من أشد أنواع الظلم السعي في خراب مساجد الله، ومنع ذكر الله فيها، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة:١١٤)

ولم يقصر المسلمون الحماية الواجبة على المساجد، وإنما فقهوا من روح دينهم ومبادئه وأحكامه وقيمه لزوم حماية دور العبادة ومرتاديها بغض النظر

---

(١) وقال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد:٤٠)
وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (النحل:٨٢)

عن معتقدات أصحابها، فكان ولاة أمر المسلمين يوصون الجيوش وقادتها بعدم التعرض بالأذى للصوامع ومرتاديها، عملا بالهدي النبوي.

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: "اخرجوا بسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع، (مسند الإمام أحمد، ومن مسند بني هاشم ، مسند عبد الله بن العباس) .

ومن التطبيقات العملية التي ترد في هذا السياق، العمل المشهور الذي قام به الخليفة عمر بن الخطاب عند كنيسة القيامة لما حان موعد الصلاة، يصف ميخائيل مكسي في كتابه "القدس عبر التاريخ" كيف وصل الخليفة "ممتطياً جملاً صغيراً ، ولم يكن معه سوى عبده وسلاحه ، واستقر على جبل الزيتون، ثم رحل إلى القدس ، ففتحت له المدينة أبوابها سنة ٦٣٨ م ، دون أن يتم تدمير أي شيء فيها ، وتسلم مفاتيحها من البطريرك صفرنيوس في حفل كبير ، ثم زار كنيسة القيامة .

وتجمع كل المصادر التاريخية الإسلامية والمسيحية على أنه لما حان موعد الصلاة طلب منه البطريرك أن يؤديها حيث كان فاعتذر عمر حفاظاً على المقدسات المسيحية كي لا تكون صلاته هناك سنة لمن يجيء بعده . ولهذا اختار مكاناً آخر إلى الجنوب وصلى هناك (عن موقع المركز الفلسطيني للإعلام، تاريخ القدس منذ الفتح العربي، قدس برس (الدكتور/ أحمد صدقي الدجاني).

وقد تبع هذا الموقف النبيل لثاني خليفة مسلم بعد الرسول ﷺ وهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إعطاؤه الأمان والعهدة لنصارى بيت المقدس فيما بات يعرف بالعهدة العمرية التي كتبها لأهل القدس، وفيها: "بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من

الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم ،ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم .. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين " .(تاريخ الطبري، ٤/ ٤٤٩)

وورد في الخبر الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: " وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم " (صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل عن أهل الذمة ولا يسترقون) .

وعلى غرار هذا النهج سار الخلف مقتفين آثار السلف، فهذا خالد بن الوليد يعطي عهداً لأهل دمشق على غرار العهد الذي أعطاه سلفه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل القدس، ونص العهد الذي أعطاه خالد: " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق، أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم و كنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم. و لا يسكن شي من دورهم ، لهم بذلك عهد الله و ذمة رسوله ﷺ والخلفاء و المؤمنين " (البلاذري في فتوح البلدان، ١٦٦).

ويشهد الواقع على حفظ الإسلام حقوق الآخرين في الحياة والوجود، وحفظ معابدهم وكنائسهم، وليس أدل على هذه الحقيقة من بقاء السلالات البشرية المنحدرة من أصول غير مسلمة في بلاد المسلمين، وبقاء كنائسهم ومعابدهم التاريخية في ديار المسلمين دون أن تمس من قبل المسلمين بسوء عبر الزمان الذي حكمت فيه ديار المسلمين بالإسلام ومن قبل المسلمين.

ضوابط العلاقة مع الآخر وحدودها

للعلاقة التي يقيمها المسلم مع غيره ضوابط في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن تلك الضوابط:

التمييز بين الناس حسب مواقفهم من المسلمين، فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران:١١٣)

فمن الإجحاف معاملة غير المسلمين بنفس المستوى والأسلوب، والله يجعل المودة مطلباً منشوداً بين الأعداء عند توفر مقتضياتها، يقول تعالى: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة:٧).

ومن التعايش الودي بين المسلمين وغيرهم، عيادة مرضى الآخر، والتعامل المعاشي معه، عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبيﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له أسلم فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبيﷺوهو يقول الحمد لله الذي أنقذه من النار" (صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي).

وكان الرسولﷺ يقبل الهدية من غير المسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: "أن يهودية أتت النبيﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل ألا نقتلها

قال لا فما زلت أعرفها في لهوات[1] رسول الله ﷺ" (صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين).

وفي رواية لمسلم: عن أنس: أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك ، قال: ما كان الله ليسلطك على ذاك،- قال أو قال علي - قال: قالوا ألا نقتلها؟ قال :لا قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ" (صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السم).

وعن أبي حميد الساعدي قال: "غزونا مع النبي ﷺ تبوك وأهدى ملك أيلة للنبيﷺ بغلة بيضاء وكساه بردا وكتب له ببحرهم" (صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إذا وادع الإمام ملك القرية هل يكون ذلك لبقيتهم) .

وفي المقابل فإن النبي ﷺ أعطى حلة لعمر بن الخطاب فأهداها عمر لأخ له مشرك، ففي صحيح الحديث، رأى عمر بن الخطاب حلة سيراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها يوم الجمعة وللوفد، قال: "إنما يلبسها من لا خلاق له في الآخرة" ، ثم جاءت حلل فأعطى رسول الله ﷺ عمر منها حلة وقال: أكسوتنيها وقلت في حلة عطارد ما قلت؟ فقال: إني لم أكسكها لتلبسها فكساها عمر أخا له بمكة مشركا" (صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب هدية ما يكره لبسها).

---

(١) في لهوات: بفتح اللام جمع لهاة وهي سقف الفم أو اللحمة المشرفة على الحلق وقيل هي أقصى الحلق وقيل ما يبدو من الفم عند التبسم . (فتح الباري -لابن حجر العسقلاني).
كأنه بقي للسم علامة وأثر من سواد أو غيره. (صحيح مسلم بشرح النووي)

وفي مجال القتال والخصام أمر الله بقتال المقاتلين المعتدين، ومنع الاعتداء على غيرهم، فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠).

فمع مشروعية قتال المعتدي، يجيء التحذير من القيام بدوره، إذ الاعتداء مذموم بغض النظر عن فاعله.

والله يأمر المسلمين بالاستجابة إلى السلام حين يطلبه عدوهم، مع مراعاة التقيد بالأحكام الشرعية الخاصة بذلك، يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال:٦١)

والسلام غاية إسلامية، بل هو اسم من أسماء الله الحسنى، يقول تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الحشر:٢٣).

والسلام اسم من أسماء الجنة، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام:١٢٧) والله يدعو إلى دار السلام ويهدي إلى سبله من يشاء، قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾ (يونس:٢٥)[١].

وكان السلام هدفاً للرسول ﷺ، فكان ﷺ من بين وصيته لأمراء الجيوش والسرايا: "إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما

(١) وقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ﴾ (المائدة:١٦)

على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا" (صحيح مسلم، كتاب المغازي، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب).

ولما قصد ﷺ مكة معتمراً وصدته قريش، عقد معها صلح الحديبية، الذي تضمن شروطاً متبادلة من الطرفين، حتى إن بعض الصحابة لم يستوعب مبرر القبول ببعضها، وكانت حكمة الرسول ﷺ هي المنتصرة في النهاية.

ويرفع الله عن المسلمين الحرج من مسالمة المسالمين من غيرهم، بل يأمر ببرهم، والعدل لهم، يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

والبر معناه عام يشمل كل خلق حسن، عن النواس بن سمعان الأنصاري، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: "البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس" (صحيح

مسلم، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تفسير البر والإثم).

وخص الله القسط بالذكر إلى جانب البر في هذه الآية الكريمة، وهي تحث على فعلهما لمن لم يكن معادياً للمسلمين منهم، بل حفزت الآية الكريمة على التشبث بالقسط خلال الأمر به مقروناً ببيان حب الله للمقسطين، فكفر الكافر لا يمنع من العدل له، وإن لم نكن راضين عن مناهجه وأفكاره، فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨).

حتى لو كان الآخر معتدياً فإن اعتداءه لا يبرر تعدي الحق في التعامل معه، فالله تعالى يقول: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ (المائدة:٢).

فلا يجوز قتل نفس منهم بغير حق، يقول النَّبيﷺ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا" (صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم).

ويشمل ذلك منع الاعتداء على معاهد أو من له هدنة أو أمان عند المسلمين. (فتح الباري، ج ١٢)

ومن الشواهد الرائعة على عدل المسلمين مع غيرهم، ما حصل مع الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بشأن درعه التي فقدها ثم وجدها عند يهودي، فاحتكما إلى شريح القاضي، فحكم بها لليهودي، فأسلم اليهودي وقال: "أما إني أشهد أن هذه أحكام أنبياء! أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه، فيقضي لي

عليه! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق " . فقال علي كرم الله وجهه: أما إذ أسلمت فهي لك.(البداية والنهاية، ج ٨)

فالاختلاف الواقع بين المسلم وغيره من الناس، لا يبرر التخلي عن القيم التي ينادي بها الإسلام عند التعامل مع المخالفين، وقد فقه غير المسلمين هذا الموقف الإسلامي، فتعاملوا مع معطياته في واقعهم، عندما كانت تواجههم بعض المشكلات والقضايا، فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ("كُنا عند عمر بن الخطاب إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، قال: و ما لك؟ قال: أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأقبلت فرس لي فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فرسي ورب الكعبة فلما دنا مني عرفته فقلت: فرسي ورب الكعبة، فقام يضربني بالسوط، ويقول: خذها، وأنا ابن الأكرمين: قال فوالله ما زاد عمر على أن قال: اجلس، ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل وأقبل معك بابنك محمد. قال: فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت أنت جناية؟ قال: لا، قال فما بال عمر يكتب فيك؟ قال: فقدما على عمر. قال أنس: فوالله إنا لعند عمر بمنى إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه فقال: أين المصري؟ فقال ها أنا ذا. قال: دونك الدرة اضرب ابن الأكرمين قال: فضربه حتى أثخنه، ثم قال: اجعلها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال: يا أمير المؤمنين لقد ضربت من ضربني، فقال أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه. يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ثم

التفت إلى المصري. فقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب لي "

ولما رأى عمر بن الخطاب شيخاً كبيراً من أهل الذمة يسأل الناس، قال: (ما أنصفناك إن أكلنا شبيبتك، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله أن لا يأخذوا الجزية من شيخ كبير) (كتاب الخراج، لأبي يوسف، ص ١٥٠-١٥١).

ولم يغب عن بال الفاروق عمر بن الخطاب وهو على فراش الموت أن يوصي بالعدل لأهل الذمة، حيث قَالَ: " وأُوصيه بذمَّة الله وَذمَّة رَسُوله ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بعَهْدهمْ وأَنْ يُقَاتَلَ منْ وَرَائهمْ وَلاَ يُكَلَّفُوا إلاَّ طَاقَتَهُمْ" . (صَحيح البخاري، كتاب الجَهاد والسير، باب يقاتَل عن أهل الذمة ولا يسترقون).

وكثيرة هي أخبار السلف الصالح التي تؤكد حرصهم على التعامل بكل شفافية وعدل مع غير المسلمين، وما هذه المواقف إلا نهجاً يسير عليه المسلمون، على هدي دينهم الحنيف، ومن أخبارهم في هذا المجال: أن عمير بن سعد ترك ولاية حمص لإساءته إلى ذمي، وقال للخليفة مستعتباً عن الرجوع إلى الإمارة: (إن ذلك لسيء، لا عملت لك، ولا لأحد بعدك، والله ما سلمت، بل لم أسلم، قلت لنصراني: أخزاك الله، فهذا ما عرضتني به يا عمر، وإن أشقى أيامي يوماً خلفت معك يا عمر) ولم يجد الخليفة بُداً من قبول هذه الاستقالة. (المعجم الكبير للطبراني، ج ١٧)

ولما ولي أمير العدل عمر بن عبد العزيز أمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي يشكو الأمير العباس بن الوليد بن عبد الملك في ضيعة له أقطعها الوليد لحفيده العباس، فحكم له الخليفة بالضيعة، فردها عليه. (البداية والنهاية، ج ٩)

وإلى الذين يتلذذون في صلب المستضعفين من المسلمين في طوابير الانتظار في الطرقات والمعابر وتحت أشعة الشمس أو مطر السماء، نسوق رواية وردت في صحيح مسلم مَرَّ هِشَامُ بْنُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ عَلَى أُنَاسٍ مِنْ الأَنْبَاطِ بِالشَّامِ قَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ فَقَالَ مَا شَأْنُهُمْ قَالُوا حُبِسُوا فِي الْجِزْيَةِ فَقَالَ هِشَامٌ أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا" وَزَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ قَالَ وَأَمِيرُهُمْ يَوْمَئِذٍ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى فِلَسْطِينَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَحَدَّثَهُ فَأَمَرَ بِهِمْ فَخُلُّوا". (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق).

أما القائمون على عدوانهم، فليس لهم مسالمة ولا ود لهم ، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة:٩).

والله أباح لنا الأكل من طعام أهل الكتاب، ولكن في إطار التزام الأحكام الشرعية الخاصة بالمطعومات والمشروبات، فلا يحل لنا أن نأكل منهم الخنزير ولا الميتة، ولا شرب الخمر. فمن ثبت أنه لا يذبح وإنما يصعق المواشي والدواجن والطيور التي يباح أكلها أصلاً، فإن ذبائحه التي تذبح بهذه الطريقة يصبح حرام أكلها لهذا السبب، سواء فعل ذلك بها من قبل مسلم أو أحد من أهل الكتاب، وفي إباحة طعام أهل الكتاب إشارة دالة، حتى لا يفهم أحد أن هناك حظراً خاصاً بالطعام بسبب أنه من أهل الكتاب، فقد أكد الله على رفع هذا الحظر بهذا الحكم الذي تضمنته الآية الكريمة.

وأباح الله لنا الزواج من نساء أهل الكتاب ضمن الحدود التي فرضها الله

للبيوت المسلمة، والمعاشرة الزوجية بين الأزواج المسلمين.

ولا بد للحديث عن العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أن ينطلق من الموضوعية والإنصاف والوعي، فالإسلام يمقت التعصب الأعمى، لأنه يدرك خطورة عواقبه، عدا عن كونه أسلوباً فاشلاً، لا يجلب للمسلمين خيراً.

ومن ضوابط العلاقة التي يقيمها المسلم مع غيره في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، الامتناع عن السب والشتم لمعتقدات المخالفين، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:١٠٨)

عن أبي هريرة قال: "قيل: يا رسول الله ادع على المشركين. قال: إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة". (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها).

واستخدام الأساليب الاستفزازية تسيء لمستخدمها أكثر مما تحسن في معظم الأحيان والظروف، لهذا علل الله النهي عن سب معتقدات غير المسلمين حتى لا يستدرجوا لممارسة نفس الأسلوب مع معتقدات المسلمين.

وقد أمر الله بملاطفة الوالدين المشركين، حتى وهما يمارسان الضغوط على ابنهما لرده عن دين الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٨) بل أمر الله بحسن صحبتهما وهما على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ

مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٥).

عن مصعب بن سعد عن أبيه، أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك وأنا آمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة، فسقاها فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية. ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ ﴿وإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي﴾ (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه)

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: " قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول اللهﷺ فاستفتيت رسول اللهﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي قال نعم صلي أمك " . (صحيح مسلم، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين)

وقال الخطابي : " فيه أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلما " . وفيه موادعة أهل الحرب ومعاملتهم في زمن الهدنة. (فتح الباري، ج ٥)

الحوار وسيلة مهمة للتواصل مع الآخر

في ظل الاختلاف الواقع لا محالة بين الناس، لا بد من وسيلة للتواصل بينهم، فهم يعيشون في عالم متشابك المصالح، يشترك فيه الناس في كثير من الأمور المهمة، سواء البيئية أم المعيشية، أم الصحية ..الخ، وبخاصة الذين يعيشون في مجتمع واحد، أو مجتمعات متجاورة.

ويجدر التنبيه في هذا المقام إلى أن الدعوة إلى الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يؤديا وفق المنهاج الذي أرسيت أسسه في القرآن والسنة، فالله تعالى يقول: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥).

وقد ثبتت مشروعية الحوار في كثير من الآيات القرآنية، فالله حاور الملائكة، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠).

وحاور الله إبليس، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ

مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٣٢-٤٢).

وحاور الله أنبياءه، فحاور إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٢٤)[1].

وحاور الله موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ..﴾ (الأعراف:١٤٣)

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (طه:١٧- ٢١)

وحاور إبراهيم عليه السلام الملائكة، وورد ذكر ذلك في عدة مواضع قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (الحجر: ٥١-٦٠).

---

(١) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٠)

والحوار أسلوب استخدمه الناس عبر الزمان مع مخالفيهم أو في معالجة قضاياهم ومشاكلهم، انظروا المؤمن الذي حاور مخالفه، الذي وصفه الله بصاحبه، ولم يكن ذلك أمراً عابراً، وإنما هي إشارة إلى إمكانية أن تكون بين المؤمن ومخالفه مصاحبة، يقول تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (الكهف:٣٧)

وكذلك حاور الجاحد صاحبه المؤمن الشاكر، قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ (الكهف:٣٤).

وحاورت المرأة التي ظاهر منها زوجها الرسول ﷺ حول مشكلتها، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة:١).

وحاور الأنبياء أقوامهم، واستخدموه أسلوبا في محاجة أقوامهم ودعوتهم، ومن شواهد ذلك، ما ورد في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ...﴾ (الأنعام: ٨٠).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨)

وحاور إبراهيم والده المشرك، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً

سَوِيّاً يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ (مريم: ٤١-٤٨).

وحاور إبراهيم عليه السلام ابنه اسماعيل الحليم، في أمر الذبح، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢)

فالحوار أسلوب رئيسي يستخدمه الناس في علاقاتهم مع بعضهم بعضا، ومن دلالاته أنه الأسلوب البديل عن فرض الرأي، وانتزاع الموافقات في المواقف المختلف عليها بين الناس، ومن متطلباته اللين والملاطفة، وبهما أرشد الله موسى وهارون في حوارهما الدعوي، حتى مع أشد الناس كفراً وعناداً وتبجحاً، فخاطبهما الله تعالى قائلاً: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (طه: ٤٣- ٤٧).

وقد حرص الإسلام على فتح كل الآفاق السلمية للحوار مع الآخر، فدعا القرآن الكريم أهل الكتاب للحوار السلمي، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً

وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)

ونظم الله المحاورة لتكون في جو من الإحسان والملاطفة، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦)

والتوجيه في هذه الآية واضح الدلالة على فهم الآخر، كيف لا؟ والآية الكريمة تأمر صراحة ودون لبس أو غموض بأن يختار المسلم أسلوب الملاطفة وحسن التعبير والاحترام عند مجادلة أهل الكتاب، ومن المؤكد أن التوجيه القرآني المتضمن الحث على المجادلة بالتي هي أحسن لم يغفل حقيقة الاختلاف الثابت بين المسلم وغيره من أهل الكتاب، سواء في بعض العقائد أم القيم أم العبادات أم الأحكام والشرائع أم المواقف .....الخ ورغم هذا التباين فإن الآية ترشد إلى أسلوب الملاطفة في النقاش عند إثارة مثل هذه القضايا الخلافية، والمجادلة تكون عادة في مواطن الاختلاف ، أما اللقاء البعيد عن الاختلاف، والمحفوف بالمجاملة الحسنة، فلا تلزمه المجادلة، وبالتالي يكون أولى بالملاطفة الحسنة.

ومن جانب آخر فإن الملاطفة في الحوار تعبر عن أدب المسلم، وتبرز سماحة الاسلام.

وكان ﷺ القدوة الحسنة للمؤمنين في عمل ما يسهل الحوار، ويلطف جوه، ضمن دائرة المسموح شرعاً، عن أنس أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى

كسرى وقيصر والنجاشي فقيل إنهم لا يقبلون كتابا إلا بخاتم فصاغ رسول الله ﷺ خاتما حلقته فضة ونقش فيه محمد رسول الله " . (صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب في اتخاذ النبي ﷺ خاتما لما أراد).

والنتائج الإيجابية للحوار ليست مضمونة ولا ينبغي أن تكون مشروطة مسبقاً، فالله تعالى أمر رسوله ﷺ بالدعوة ووضح له أن الاستجابة ليست بيده، وينبغي أن لا تعتبر حتمية بعد عرض الدعوة، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٧٢).

ويجدر كذلك أن لا تحبط النتائج السلبية المتوقعة محاولة الحوار وطرق أبوابه، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:١٦٤) .

فلا مبرر مطلقاً لغلق باب الحوار، تحت أية ذريعة، ما دام الهدف منه نبيلاً ومشروعاً، وعلى هذا الهدي سار الرسول ﷺ وصحبه الكرام، فلم يحكموا الناس بالحديد والنار، وإنما سلكوا أسلوب الحوار في كل المناسبات والمواقف التي وجدوا له سبيلاً مع أتباعهم وخصومهم.

التوفيق بين النصوص الشرعية التي تذم المناهج المغايرة للإسلام وبين النصوص الأخرى التي تفتح آفاقاً للاعتراف بوجود الآخر وتتيح المجال للتعامل معه إلى جانب الآيات التي تتحدث عن الاختلاف مع كثير من أصحاب الأديان والمذاهب، فإن آيات أخرى تثني على من يلتزم الحق منهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٦٢)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة:٦٩)

وورد في الحديث الشريف عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر: "لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له" (صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما من النبي ﷺ على الأسارى من غير).

في إشارة واضحة إلى مشروعية التمييز في المواقف بين المحسن والمسيئ من غير المسلمين، فكان المطعم بن عدي ممن عملوا على نقض صحيفة المقاطعة التي فرضتها قريش على المسلمين وهم في مكة قبل الهجرة، فذكر الرسول ﷺ مواقفه المسالمة من المسلمين، فجعل له شأناً، عبر عنه بما ورد في الحديث سالف الذكر.

فالإسلام يؤكد والواقع يشهد أن غير المسلمين ليسوا سواء في قربهم وبعدهم من حقائق الدين، وليسوا سواء في معاملتهم للمسلمين. وإذا كانت هذه حقيقة فيجب أن لا نغفلها في تعاملنا معهم. يجب أن نعامل كل فرد أو جماعة منهم بحسب ما نعرفه من حالهم. وهذا ليس إنصافاً لهم فحسب لكنه أمر ضروري لتحصيل كثير من المصالح ودفع كثير من المفاسد.

ومن الأمور التي ينبغي مراعاتها عند تفسير آيات القرآن الكريم، أو عند البحث عن حكم شرعي أو أمر ورد ذكره في القرآن الكريم، ضرورة جمع الآيات ذات العلاقة بالموضوع، والنظر فيها مجتمعة،

وفي الموقف من غير المسلمين و مناهجهم وبخاصة أهل الكتاب، فإن

القرآن الكريم يذكر أحياناً آيات تذمهم، وتجده أحياناً أخرى يمدحهم، مما يستدعي البحث في تفسير الآيات ذات العلاقة جميعها.

فمن الآيات التي تذم وتحذر، قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة:١٠٥)

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٩)، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ (آل عمران:٦٩)، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران:٧٢)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ﴾ (التوبة:٣٠)، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة:١٢٠).

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:١١١)، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة:١٣٥)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة:٥١)

وفي الآيات القرآنية نفسها تمييز بين طوائف أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران:١١٣)

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧٥)

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران:١٩٩)

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ (النساء:١٥٩)

ومن الآيات التي تذكر غير المسلم بالخير ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة:٨٢)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:١٨).

فبعض غير المسلمين، وبخاصة النصارى، لا يظهرون لنا عداوة، بل على العكس من ذلك يقدمون دعماً أو مساندة أو....لقضايا المسلمين، فينبغي أن يعاملهم المسلمون حسب مواقفهم من حيث العداء أو المسالمة، ومن خير الشواهد وأوضحها دلالة على ضرورة فحص المواقف، وتصرف المسلمين بناء عليها مع غيرهم، قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ

المُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

فهو موقف الود والمسالمة مع غير المعتدين، أما المعتدون فالموقف معهم يختلف، ففي مقابل الآية سالفة الذكر، وردت آية تالية لها في نفس السورة الكريمة، تقول: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة:٩).

إمكانية اختلاف آراء المسلمين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

المسلمون بشر ممن خلق الله، يحبون ويكرهون، ويحلمون ويغضبون، ويصيبون ويخطئون، وتتفاوت مداركهم ومستويات تفكيرهم واجتهاداتهم، ومن الخيال بمكان تصور اتفاقهم على رأي واحد في كل القضايا والأمور، وبخاصة المستجدة منها، حتى والرسول ﷺ بين ظهرانيهم حدث أن اختلفوا في تفسير بعض النصوص واستنباط بعض الأحكام، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: " لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في الطريق. فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدا منهم " . (صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه).

حتى إن بعض الصحابة كانت له وجهة نظر اجتهادية في أمور وقعت في عهد الرسول ﷺ، وكانوا يطرحون آراءهم بوضوح أمام الرسول ﷺ، ويقفوا عند حدود الحكم الشرعي، فحين كانوا يشعرون أن رأيهم يتعارض مع حكم شرعي، كانوا يلقون بآرائهم جانباً ويتبعون حكم الله وسنة رسوله ﷺ، ومن الشواهد على هذا المنحى ما حصل من بعض الصحابة يوم الحديبية، فلما فرغ الرسول من قضية كتاب الصلح الذي عقده مع مشركي قريش، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فو الله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك: اخرج ثم لا

تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غماً" . (صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط)

واختلاف وجهات النظر، وبيان المواقف لا يصح أن ينسينا الحكمة في التصرف، والاعتدال في معايشة المخالف، فإن المغالاة مرفوضة حتى وإن كانت في جانب الالتزام في الدين الحق، قال رسول اللهﷺ إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا ..." . (سنن النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب الدين يسر)

فالرسول ﷺ يحثنا على التزام السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، وإن لم نستطع الأخذ بالأكمل نعمل بما يقرب منه، وبشرنا بالثواب على العمل الدائم وإن قل، أو المراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنعه لا يستلزم نقص الأمر. فالرفق مطلوب في الأمر كله، والعنف مرفوض، فرسول اللهﷺ قال: يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه" . (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق)

فالاختلاف في الرأي ممكن وقوعه بين المسلمين، في الأمور التي تحتمل الاجتهاد، فمستوى عقول الناس وتصوراتهم وفهمهم متفاوت، مما يعني إمكانية تعدد الآراء في المسألة الواحدة، لكن اختلاف الرأي ينبغي أن لا

يفسد للود قضية.

وقد وجدت التعددية في الرأي مجالها الرحب في واقع المسلمين وفقههم، فالنصوص الشرعية كثير منها يحتمل التأويل، ومعظم مسائل الفقه اجتهادية، وردت فيها آراء لعلماء المسلمين، بدءاً من الصحابة رضوان الله عليهم، ومروراً بعلماء الأمة في مختلف الحقب التالية، ولن يحجر على الآراء أن تبدى حول القضايا التي تستجد في حياة الناس حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه التعددية لا تبرر التعصب للرأي الواحد، أو احتكار الحقيقة، فكان سلف الأمة الأفذاذ يقول عالمهم ومجتهدهم: رأيي صحيح يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

الصورة المثلى لعلاقات المسلمين مع بعضهم بعضاً في ظل تعدد آرائهم ووجهات نظرهم

فإذا كان التعايش بين المسلم ومخالفه ممكناً في ضوء التشريع الإسلامي، فهو بين المختلفين في الآراء من المسلمين واجب شرعي وضرورة منطقية.

فالعلاقات تبنى على أساس من الأخوة، فالذي يجمعنا أكثر من الذي يفرقنا، فربنا واحد، ورسولنا واحد، وقرآننا واحد، ونواجه مصيراً واحداً.

والقرآن الكريم يقرر أن أمة الإسلام واحدة، فالقرآن الكريم الذي تقدسه الأمتين العربية والإسلامية يقرر أن أمة الإسلام واحدة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢) وقد وردت هذه الآيَة الكريمة في سورة المؤمنون، مع اختلاف في لفظ الطلب الذي ورد عقب تقرير وحدة الأمة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢)

ففي الآية الأولى تضمن الأمر طلباً للعبادة، وفي الأخرى كان الطلب للتقوى، وكلا الطلبين يحملان من الإشارات والدلالات المهمة التي تجعل المرء يتساءل عن وجه الصلة بين كل من التقوى والعبادة وبين قضية وحدة الأمة، فلا شك أنها صلة وثيقة، وذات دلالة، فهي أمور من الصنف الأول في الأهمية، وهل يشك في ذلك مؤمن؟ وهل ينكر ذلك مطلع على كتاب الله، ومبادئ الإسلام؟ فالتقوى عنوان الطاعة المطلقة لله، والعبادة عنوان الخضوع المطلق لله، ووحدة الأمة عنوان النجاة، وطوق الخلاص من الفشل المتمثل

بخسران الدين والوطن والذات والهوية.

والقرآن الكريم الذي قرر أن أمة الإسلام واحدة، يفرض على أبنائها العمل بمقتضى هذه الوحدة، وتجنب دواعي فرقتها. ففي السورة التي عين لها الله اسم الصف، أنزل الله آيات تؤكد على أهمية الوحدة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف:٤) في دلالة واضحة ومهمة على أهمية وحدة الصف لقوة الأمة، والحفاظ على حرماتها وهيبتها.

وفي المقابل يحذرنا الله من الفرقة والنزاع، فيقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ (آل عمران:١٠٣)

ويقول سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦)

وورد في صحيح الحديث الشريف نهي جامع عن مسببات الفرقة والاختلاف والتشاحن، وأمر بالوحدة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره - ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه". (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب)

فليس عجيباً بناء على هذا أن يسلك أعداء الأمة سبيل التفريق بين

المسلمين، وإيجاد الأرضية الخصبة للتناحر والنزاع والبغض بين أبنائها ومجتمعاتها، لتصبح لقمة سائغة للآكلين، فيروى أن رجلاً حكيماً دنت منيته، استدعى أبناءه .. ثم طلب منهم إحضار رماحهم مجتمعة، وقال لهم اكسروها، فلم يقدروا على كسرها مجتمعة، فقال لهم: فرقوها، وليأخذ كل واحد رمحه ويكسره، فكسروها بسهولة ويسر فقال لهم: اعلموا أن مثلكم مثل هذه الرماح، فما دمتم مجتمعين يساند بعضكم بعضا، فلن يستطيع عدوكم أن يهزمكم، أما إذا اختلفتم وتفرقتم، فإنه يضعف أمركم، ويتمكن منكم أعداؤكم، ويصيبكم ما أصاب الرماح، وأنشد:

كونـــوا جميعاً يا بني إذا اعترى خطب ولا تتفرقـوا آحـــادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت أفرادا

ومن الأمور التي تساعد في نجاح الحوار الملاطفة والإحسان، فهما يذهبان نار الخلاف والشقاق، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)

ولا بد للحوار بين الأشقاء حتى ينجح أن يبنى على أساس الاتفاق على مرجعية شرعية مبينة وموحدة، والله تعالى نبه المسلمين إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:٥٩)

ومن الضروري التحلي بقيم العفو والإحسان عند التعامل مع المخالفين في الرأي أو محاورتهم

قال عمر رضي الله عنه: " أوصي الخليفة بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم وأوصي الخليفة بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل أن يهاجر النبي ﷺ أن يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم " . (صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب والذين تبوءوا الدار والإيمان)

توصيات قرآنية خاصة بآداب وأسس الاختلاف مع الآخر ومحاورته والتعايش معه

في ظل حتمية التعددية في الآراء والمواقف بين الناس، ينبغي للمسلم أن يراعي عدداً من الآداب وهو يتعامل مع مخالفيه سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، ومن تلك الآداب:

- التمسك بالثوابت الشرعية، التي يطلب من المسلم التزامها في كل الظروف والأحوال، باستثناء حالات الضرورة، حيث يجب التقيد بالحكم الشرعي الخاص بكل حال أو ظرف، سواء تعلق بحياة الفرد أم الجماعة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦) ويقول تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ (الشورى:١٠)

فينبغي أن ينطلق التعامل مع الآخر من منطلقات الشرع الحنيف، التي تحدد مجالات هذا التعامل وأحكامه، وقيمه، سيراً على نهج الرسول وإذا افترقن تكسرت أفرادا ومن أخذ بنهجه، فالله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١)

وقال تعالى: ﴿...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا..﴾ (الحشر:٧)

وأمر الله المسلمين أن يرجعوا بالطاعة فيما يختلفون، إلى الله والرسول وأولي الأمر، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:٥٩).

- الصبر على ما يجد المرء من مخالفيه، يقول تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس:١٠٩) ويقول سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ (طه:١٣٠).

وأن يحتسب المسلم الأجر والثواب من الله في صبره على ما يعاني من مخالفيه، بأن ينوي صبره لله، أخذاً بقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر:٧)

- مراعاة احترام الشخص الآخر سواء عند محاورته أو الحديث عنه، فالسخرية والتهكم تنفر وتجلب سلبيات للساخر ودعوته، والله تعالى نهى عنها وغيرها من أنواع السلوك الذي يجرح مشاعر الآخرين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ (الحجرات:١١)

ويجدر تجنب الحديث عن الآخر بما يسيء إليه في حال غيابه، فالله تعالى نهى عن الغيبة، فقال تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات:١٢)

ـ تجنب سب الآخر أو شتم مبادئه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٠٨)و إذا كان الله قد

حظر سب غير المسلمين وآلهتهم، فمن باب أولى أن يسري هذا الحظر بين المسلمين الذين يختلفون في الرأي والاجتهاد، بدلاً من تبادل أوصاف التكفير والتفسيق والتخوين،والذين يحملون هذه الرايات فهؤلاء هم دعاة الفتنة والفرقة، والله تعالى حذر من الفرقة في الدين، فقال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فيه﴾ (الشورى:١٣) وقال سبحانه: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (ل عمران:١٠٥)

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣٢).

وقد أعلن الله البراءة من الذين يفرقون الدين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام:١٥٩)

والبديل الصحيح عن الفرقة هو الاعتصام بدين الله، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١٠٣)

وأود في هذا المقام ذكر فتوى أصدرتها بصفتي المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية حذرت فيها من ظاهرة التكفير، تضمن نصها: الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد : فيقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم

مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:٩٤) من أخطر الظواهر التي تواجه الأمةَ الإسلامية في هذه الأيام «ظاهرة التكفير» التي أخذت حيزاً في ذهن وفكر كثيرين من أبناء المسلمين الذين يحسبون انهم ملكوا الحقيقة الدينية وأصبحت حكراً عليهم يطلقون وصف الكفر على من يخالفهم الرأي من المسلمين ولا يقول بقولهم. وقد تجاهل القائلون بتكفير المسلمين أن من نطق بشعار الاسلام وهو الإقرار بالشهادتين يصبح مسلماً معصوم الدم والمال لحديث الرسول ﷺ: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) .(صحيح البخاري،كتاب الزكاة،باب وجوب الزكاة)

وقال رسول الله ﷺ: فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ثم قرأ ﴿إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ (صحيح مسلم ،كتاب الإيمان، الأمربقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله). وفي حديث جبريل عليه السلام حينما سأل عن الاسلام ، قال له الرسول ﷺ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺوتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت.

قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن أمارتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " (صحيح مسلم،كتاب الإيمان،باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان).

وفي حديث آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما " رواه أحمد في مسنده ،كتاب مسند المكثرين من الصحابة،باب باقي المسند السابق) .

ولم يقبل رسول الله اعتذار الحب ابن الحب أسامة بن زيد –رضي الله عنهما – حينما قتل الجهني بعدما قال " لا إله إلا الله – يقول أسامة – رضي الله عنه – "بعثنا رسول اللهﷺ إلى الحرقة من جهينة قال فصبحنا القوم فهزمناهم قال ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم قال فلما غشيناه قال لا إله إلا الله قال فكف عنه الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ قال فقال لي يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله قال قلت يا رسول الله إنما كان متعوذا قال أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله قال فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم "(صحيح البخاري ،كتاب المغازي ' باب بعث النبي اسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة).

إن هذه النصوص من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة تظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن من شهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله هو مسلم لا يجوز تكفيره ويحرم الاعتداء عليه باستباحة دمه أو ماله أو عرضه إذ يصبح معصوم الدم والمال والعرض بنطقه الشهادتين ، وأن باطنه متروك إلى الله سبحانه وتعالى الذي يعلم السر و اخفى ، وأن عقيده أهل السنة

والجماعة التي مات عليها أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من التابعين والسلف الصالح واجمع عليها علماء الأمة "أننا لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب . لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ به وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ (النسَاء:٤٨) .

وبناء على ما تقدم ، فإن ظاهرة التكفير التي يروج لها بعض المنتسبين للإسلام هي من أخطر الظواهر التي تواجه المجتمعات الإسلامية باسم الإسلام ، ويجب على جميع علماء المسلمين وأحزابهم وجماعاتهم أن يحاربوها ويقاوموها ويقضوا عليها في مهدها حتى لا تستغل في ظروف تشهد فيها الأُمة حرباً ثقافية واستعمارية وانقسامات عرقية ومذهبية وطائفية إذ إن ظاهرة التكفير هي الأخطر من هذه الظواهر جميعها ومن شأنها إذا انتشرت في المجتمعات الإسلامية أن تثير فتناً عمياء تقضي على كل محاولات توحيد الأمة الإسلامية وجمعها على كلمة الإسلام والإيمان . والله يقول الحق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

– التعاطي مع قضايا الاختلاف بموضوعية وإنصاف، فالله تعالى نهى عن مجانبة العدل مع الخصم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة:٨)

– التحلي بالرفق واللين في محاورة الناس ومعايشتهم، قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥)

وخير قدوة في ذلك هو الرسول ﷺ، الذي أثنى الله عليه، فقال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّه لنت لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩)

- الامتناع عن ممارسة الاقتتال الداخلي بين الفئات المجتمعية المختلفة، أفراداً وجماعات، حيث اعتبر الله التنازع في الأمر من مسببات الفشل، فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٥٢)

وأود هنا ذكر فتوى أصدرتها بصفتي المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية حول حرمة الاقتتال الداخلي، جاء فيها:

قال تعالى:﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة٢٨:)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد: فقد آلم كل مسلم ما شاهده خلال وسائل الاعلام من الاشتباكات والاقتتال الداخلي بين أبناء الوطن الواحد فوق الارض الفلسطينية وبالتحديد بين أبناء حركتي فتح وحماس مما أضر ويضر بمصالح الشعب الفلسطيني وبقضيته العادلة كما ينتهك محرما حرمه الله تعالى ورسوله فالله يقول :﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئًا﴾ (النساء:٩٢) ويقول : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً﴾ (النساء : ٩٣).

وقال رسول الله ﷺ: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا " (صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى) إن مجلس الفتوى الأعلى وأصحاب

الفضيلة المفتين يؤكدون على حرمة دم المسلم ويحرمون الاقتتال الداخلي بين الإخوة في فلسطين وفي كل مكان من ديار المسلمين ويعتبرون من يقتل أو يأمر أو يعين على قتل أخيه المسلم عمدا أو ثأراً أو ظلما خارجا عن تعاليم ديننا الحنيف الذي أمر بحقن الدماء وحرم دم المسلم وماله وعرضه. والله يقول الحق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

خاتمـــة

فهذه نظرات مختارة في علاقة المسلم مع الآخر، في ضوء الهدي القرآني والنهج النبوي، وسلوك السلف الصالح من المسلمين، تأكد خلالها أن الاختلاف بين الناس أمر واقع لا محالة، وأن الإسلام لا يطلب من المسلم أن ينعزل عن الآخرين، فهو يعايش غيره، ويحاور مخالفيه، ولا يعني تعايشه مع الآخر قريباً كان أو بعيداً أن يقف موقفاً سلبياً في مواجهة سلبيات القيم والسلوك التي قد تقضي نتائجها على الأخضر واليابس، داخل المجتمع الذي تنتشر فيه، وقد تمتد نارها للمجتمع الإنساني، والرسول ﷺ حذر من هذا المنحى في المواقف فقال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا". (صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه)

وهذا يعني ضرورة تناصح أبناء المجتمع الواحد فيما بينهم، فهم يواجهون

مصيراً مدمراً واحداً، جراء تعرضهم لمسببات الهلاك الناجمة عن الانحراف في السلوك الإنساني، لكن التناصح ينبغي أن يكون وفق المعايير المستوحاة من روح الشريعة وقيمها النبيلة، فيراعى فيه الوعي والصبر والمسامحة وسعة الصدر والموضوعية والقواسم المشتركة بين الناس.

وبما أن التعددية العقائدية أمر واقع لا محالة، وقد جاءت الآيات القرآنية تؤكد أن اختلاف البشر في معتقداتهم وشرائعهم يقع في إطار مشيئة الله، فعلى المسلم أن يتعامل مع هذه القضية من هذا المنطلق، ومن مقتضيات هذا التعامل، أن لا يجبر أحد على تغيير مذهبه ومعتقده، فنزع الاعتقاد من الناس قسراً خطأ فادح، ورسوخ هذه الحقيقة في نفوس الناس وقلوبهم يساهم في تلطيف الأجواء بينهم، ويساعد في تخفيف حدة الاحتقان بين المختلفين الذي يمكن أن ينتج من تعدد آرائهم ومذاهبهم.

من هنا يكون المطلوب من المسلم الدعوة للخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما النتائج فتترك لله، وينسجم مع هذا المبدأ الموقف الشرعي من دور العبادة الخاصة بغير المسلمين، فالإسلام يأمر بحمايتها والحفاظ عليها، أياً كان أصحابها، فهي محمية وفق الشريعة الإسلامية، فلا يجوز التعرض لها بالهدم أو التخريب، ولا يجوز التعرض لمرتاديها بأي شكل من أشكال الأذى أو المضايقة، ويشهد الواقع على حفظ الإسلام حقوق الآخرين في الحياة والوجود، وحفظ معابدهم وكنائسهم، وليس أدل على هذه الحقيقة من بقاء السلالات البشرية المنحدرة من أصول غير مسلمة، في بلاد المسلمين، وبقاء كنائسهم ومعابدهم التاريخية في ديار المسلمين دون أن تمس من قبل المسلمين

بسوء عبر الزمان الذي حكمت فيه ديار المسلمين بالإسلام ومن قبل المسلمين.

أما بالنسبة لعلاقة المسلم مع مخالفيه من المسلمين أنفسهم، فهي تقوم أيضاً على أساس أن الاختلاف في الرأي ممكن أن يقع بينهم في الأمور التي تحتمل الاجتهاد، فمستوى عقول الناس وتصوراتهم وفهمهم متفاوت، مما يعني إمكانية تعدد الآراء في المسألة الواحدة، لكن اختلاف الرأي ينبغي أن لا يفسد للود قضية. وقد وجدت التعددية في الرأي مجالها الرحب في واقع المسلمين وفقههم.

وإذا كان التعايش بين المسلم ومخالفه ممكناً في ضوء التشريع الإسلامي، فهو بين المختلفين في الآراء من المسلمين واجب شرعي وضرورة منطقية. فالعلاقات بينهم يجب أن تبنى على أساس من الأخوة، فالذي يجمعنا أكثر من الذي يفرقنا، فربنا واحد ، ورسولنا واحد، وقرآننا واحد، ونواجه مصيراً واحداً. والقرآن الكريم يقرر أن أمة الإسلام واحدة، وفي المقابل يحذرنا الله من الفرقة والنزاع، ولا بد لأفراد الأمة وجماعاتها من الارتقاء إلى مستوى الخطب، فلا مجال للتشاحن أو التنافس، والحوار بديل مفضل عن الحرب والدمار.

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء، د.ت. البداية والنهاية. بيروت: مكتبة المعارف.
- أبو يوسف، ابن إبراهيم يحيى بن آدم القرشي، ١٩٨٧م. الخراج. ط١، دار المعرفة للطباعة والنشر.
- البخاري، محمد بن إسماعيل ،١٩٨٧م. صحيح البخاري. تحقيق د. مصطفى البغا.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود ، ٢٠٠١م. فتوح البلدان. ط١، دار مكتبة الهلال.
- حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، د.ت. مسند أحمد بن حنبل .القاهرة: مؤسسة قرطبة.
- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، ١٩٨٣م. المعجم الكبير. ط ٢، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي.
- الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر، ١٤٠٧هـ. تاريخ الأمم والملوك. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- العسقلاني، أحمد علي بن حجر ، د.ت. فتح الباري. دار المعرفة، بيروت.
- مسلم، مسلم بن الحجاج، ١٩٧٨م. صحيح مسلم. ط٣، بيروت: دار الفكر.
- النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، ١٩٨٦ م . المجتبى من السنن (سنن النسائي) حلب. مكتب المطبوعات الإسلامية. الطبعة الثانية، تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري،١٣٩٢هـ. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. ط ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

دوريات صحفية ومصادر الكترونية

- تاريخ القدس منذ الفتح العربي، موقع المركز الفلسطيني للإعلام
- ربيع الحق، (٢٠٠١) معالم في معاملة غير المسلمين، موقع إسلام أون لاين.